الغائبة

قبل أيّام من الاحتفال بعيد الأسرة، اهتمت المدرسة في إقامة حفلها السنوي بدعوة جميع أسر التلاميذ لحضور هذا الاحتفال، ولما كان هذا العيد تكريمًا للأمّ في حد ذاتها، علم الطفل هاني بذلك فاضطرب وعاد إلى منزله، واختلست عيناه بعض غفوات من النوم طيلة ليلته هذه لغياب أمّه، التي كان يلتمس فيها الحبّ ويستمدّ منها الحنان حتّى أصبحت هواء يتنسمه، تسلَّل هاني إلى قاعة الاحتفال، فوجد الأطفال يجلس كلّ منهم بجانب أمّه حاملًا هديته لها، وقف تائهًا ينظر يمينًا ويسارًا بعينيْن حائرتيْن،

يخيّل لمن يراه أنّه يريد أن يبحث بين المقاعد وأسفلها عمّا فُقِدَ منه، وبعد برهة صمتٍ رفع يده إلى السماء ليقول:

-" لماذا يا ربّ حرمتني حنان أمي" ثمّ صاح في الحاضرين بأعلى صوته:

- أين أمي، أين أمي؟

فاتّجهت إليه الأنظار ودهش الأطفال لما حدث من زميلهم، ثمّ تقدّم نحو أوّل مقعد، وأشار إلى الطفل الجالس بجانب أمّه، وقال في صوت متعثّر النطق من شدة بكائه:

- هذه أمك، وإلى الثاني:

- إنّها أمك.

استمر هاني يخترق صفوف الجالسين، وهو يردّد هذه العبارة حتّى انخفض صوته وتاه عقله، وأصبح غير قادرٍ على الكلام، حينما فاضت عينيه بالدموع.

أسرع هاني هائجًا يلقي كلّ ما هو على مائدة الاحتفال، فتناثرت الأشياء المحطَّمة على الأرض، وراح يخطف الهدايا من أيدي زملائه، ويرمي بها من النافذة، حتّى بكى الحضور من أجله وترحّموا على أمّه، وسواءٌ أكان هذا شأن من حرم من أمه، أم أن الطفل تحرّكت فيه مشاعره الساكنة عندما رأى زملاءه مع أمهاتهم، ويحملون الهدايا لهن، فإنّ أحدًا لم يجرؤ على أن يوقف الطفل، الذي غابت عنه أمّه، أو يهدئ روعه بكلمة، وكأنّ الحضور جميعًا تحوّلوا إلى قوالب طوب مرصوصة، أو ألواح مقنعة أو أنّهم التصقوا في مقاعدهم أمام هذا الطفل البريء، والذي حرّك فيهم مشاعر الأسى فأدمى قلوبهم.

أخيرًا تخلّص الطفل ممّا تعبّأت به نفسه، ووقف منزويًا في إحدى جوانب القاعة، يتَّكِئ على الحائط وذراعاه من خلفه، يبكي، كأنّه يرفض استمراره في الحياة أو يتمرّد على هذا الحفل.

تعكّر صفو الاحتفال ليهب شبح القلق والاضطراب محتلا صفاء هذه القاعة ونقاءها، تقدّمت إليه جميع الأمهات، يربتن على كتفه في رفق وحنان؛ ليطيبن خاطره قائلات:

- نحن جميعًا أمك يا هانيز

لكنّ المصيبة العظمى والداهية الصماء؛ التي عصفت بأصحاب القلوب الرحيمة حينما أشار الطفل بإصبعه إلى بعض زملائه قائلا: أريد أمًّا واحدة مثل فلان، وفلان.

هنا حزن جميع الحاضرين لتتحول القاعة الباسمة إلى نحيب وبكاء فلا يملك أحد أن يلبي له مطلبه أو يفعل من أجله شيئًا وظلوا مشدوهين، لا يستطيعون أن يتابعوا بأعينهم المنكسرة خطواته الغاضبة حتّى ترك القاعة وانصرف.

في الصباح قصَّ الطفل هذا الحلم على جدّته العجوز العمياء، وروى ما رآه وما شعر به من حرمان، فأحسّت بمشاعره، واحتضنته والدمع يجري من عينها بلا قيود، وحمدت ربّها على أنّ ما رآه كان حلمًا، وقالت تحت غلالات الدمع وبدافع من الحب لحفيدها:

- إنّ أمّك لم تمت.

كانت مفاجأة مذهلة لهاني، وتسرّبت فرحة جمّة إلى أعماقه، حينما كشفت له عن السرّ الرهيب، الذي أخفاه عنه والده منذ أن طلّق أمّه؛ لينتقم منها، وليحرمها من رؤياه، تركت الجدّة خلفها كلّ معاني الحقد والكراهية؛ التي كانت تكنّها لأمّه زينب، والتي تسبّبت في طلاقها واستطردت العجوز قائلة:

- سوف أبحث عنها لتكون بجانبك وتسعد بها.

وفي اليوم المحدّد لإقامة الحفل دخلت الجدّة يصحبها هاني إلى قاعة الاحتفال؛ لتقوم بدور أمّه، ويقدّم هديته لها، وقبل أن يجلسا تقدّمت امرأة من هاني، واحتضنته وقبّلته في لهفة وحنان، فاستجاب لها، وتعانقا طويلًا، فسألتها العجوز:

- من أنت؟

لتقول المرأة:

- أنا زينب.

فاحتضنها العجوز مقبّلة إيّاها، ولأوّل مرة شعرت زينب بحلاوة اللقاء مع تلك العجوز، التي كانت حمقاء، وكان اللقاء سعيدًا، حضر فيه الحبّ ورحل الظلم والحقد والانتقام.

فالأمّ، التي حملت لا تقوى على فراق فلذة كبدها ساعات لتكون هي أوّل الحاضرين للاحتفال، الذي طالما تابعته وانتظرت تترقب إقامته بعد غياب طويل لتسعد بولدها مدى الحياة.